لعل الثقافة العربية بأصالتها الحضارية قد دخلت أفقًا جديداً أكدت به ذاتها حين كان المشروع الروائي **لنجيب محفوظ**، ذلك المشروع الذي تحققت به متطلبات الزمن ومقتضيات الوعي الذاتي القومي، فإن كانت ثقافتنا هي آخر الثقافات التي ارتادت آفاق هذا الفن في تقنياته الحديثة فإنها أيضاً أول الثقافات التي احتفظت به وطورته حتى بلغت به الذروة على يد محفوظ، ابن الحضارتين الفرعونية والإسلامية والذي خلق نوعًا من الحوارية المتألقة بين الأرضية التراثية العربية والأوروبية.

والحقيقة إن المشروع الروائي الذي دأب عليه محفوظ هو في حقيقته منظومة رائعة من القيم السياسية والاجتماعية والروحية كمنظومات الروائيين العالميين أمثال : مارك توين، جيمس جويس، فيرجينيا وولف، مارسيل بروست، وليام فوكنر وغيرهم، غير أن هؤلاء قد أسسوا مشروعهم الروائي على إسهامات كثيرة ربما مهدت لهم نحو هذا النبوغ الأسطوري في عالم الرواية لكن ماذا لو أن الإرهاصات القصصية والروائية قبل **محفوظ** لم تكن تمثل إلا أرضًا يبابًا لا تنتج روائي في قامة روائيين أوروبا؟ بل ماذا لو لم يكتمل لبانوراما الثقافة العربية أحد جوانبها المضيئة على تاريخها الطويل وعمقها وريادتها وسط الثقافات العالمية وحروبها الحديثة؟ !!

وليس كل المقبلين على أدب محفوظ أو الزاهدين فيه يختلفون – مهما اختلفوا – حول قيمة هذا الأدب أو ضرورته للواقع وضرورة هذا الواقع له أيضًا !! وكيف يمكن تمثل ذلك في أكثر من تصور ثقافة ما للتاريخ الاجتماعي والروحي للإنسانية بأسرها في أحد الأعمال الروائية